

قصة قصيرة

المخطوطة البغدادية

قصة
جبار ياسين



في مجلده المخطوط «المروج السماوية» – التي يعتقد البعض أن مخطوطته تلفت في ركام المخطوطات الراقدة دون عناية في مكتبة المتحف العراقي في بغداد» – يحدثنا أبوالحسن الرهاوي بحكاية نادرة. وأبوالحسن، كما أخبرنا موسوعة أعلام بغداد هو عالم عاش في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، وألف في مدينة دار السلام، كما كانت تسمى، الكثير من الكتب في علوم الفلك والملاحة والفلكيات وأسرار المعادن النادرة، حتى أنه، كما يخبرنا ابن النديم صاحب موسوعة «الفهرست»، ألف كتابا الخلاص الرائق واستحالاته، ذلك قبل أن يهرب إلى البصرة بعد أن اتهمه قاضي بغداد بالزندقة. في هذه المدينة تحول التأليف في أحوال الصوفية وأعلامها، وتقول المصادر أنه انصرف إلى هذا الصراط بعد لقائه بشيخ من المتصوفة اسمه أبوجعفر القزاز قدم من كابل في السنة ٢٨٨ من

الهجرة. لكننا لا نتوفر اليوم على كتب له غير مروجه السماوية المخطوط، فمجمل كتبه قد ضاعت يوم غزت العساكر المغولية مدينة الزوراء، فأعملت في المكتبات حرقا أو اغراقا في دجلة الذي صار لون مياهه بلون الحبر كما تذكر كتب الاخباريين.

في مخطوطته يخبرنا العالم البغدادي بما يلي:

«في مساء يوم قائظ صادف اليوم الأول من شهر رمضان كنت متجها إلى المسجد لأؤدي فريضة المغرب، حينما اعترضني دلالا بيده مجلد متوسلا بي أن آخذه بثلاثة دراهم ليشتري بها فطور ذلك المساء رددته بتبرم، فقد كنت على عجالة من أمري، لكنه ذكرني بأننا في أول الشهر الكريم أعطيته ثلاثة دراهم وتصدقت عليه بدرهمين أفتتح بها الشهر المبارك، كانت هي كل ما في جيب جبتي ذلك المساء».



يضيف في المخطوطة المكتوبة بخط يده كما هو مشار أسفل الصفحة بعبارة «خطها الحقير إلى ربه أبوالحسن البغدادي»:

«أديت الفريضة وعدت إلى داري، وكان الرجل قد غادر المكان. فطرت بعد أن نويت بمرق حلو من فواكهة مجففة من طائفة المشمش والعنجاص المخلوط باللوز والعسل وليمون البصرة القوي النكهة مع شيء من الرز وقرص من خبز تنور البيت الذي خبزته زوجتي الشابة، التي كانت قبل زواجي منها جارية من رومية. بعد الفطور انصرفت إلي فسقية الدار لأنعش نفسي بسماع رقرقة سقوط الماء في حوض النافورة. تذكرت المجلد الذي اشتريته في طريقي إلى المسجد فبحثت عنه ساعة قبل أن أجده تحت عمامتي. فتحته بعد أن استلقيت على أريكتي. قلبت صفحاته فوجدت فيها تسع وعشرون حكاية، خطت عناوينها بحذاقة خطاط يعرف أنواع الخطوط التي صنفها الوزير بن مقلة شيخ الخطاطين ببغداد. بحثت عن اسم المؤلف أو الناسخ في آخر الكتاب فلم أجده، غير أني وجدت تاريخا مكتوبا بأرقام بيزنطية يشير إلى السنة ١٠٠٢ حسب تقويم رومية. خمنت أن كاتبه نصراني أو لعله من فئة المترجمين الذين يسافرون إلى رومية بحثا عن كتب أرسطو وأفلاطون التي شاعت تراجمها في بغداد هذه الأيام. ألقيت نظرة فاحصة على الحكايات

فوجدت أن أسلوبها يختلف عما ألفنا نحن العرب في تسطيره ونسجه، فلا أشعار للأقدمين يحتذى بها ولا بسملة أو آيات من الذكر الحكيم تفتتح الكتاب ولا تصنيفات وتبويب حسب الموضوع والمناسبة، بل مجرد حكايات، عابرة، يحكيها المرء عن نفسه، مثل حكايات المجانين في بغداد الذين صنف لهم التوحيدي رحمه الله كتابا. حينذاك فهمت أن كاتبها رومي أو ممن لرومية وأساليب أهلها في الخيال أثر في أسلوبه. عزمت على اخفاء المجلد عن زوجتي كي لا أثير حنينها لمسقط رأسها البعيدة عنه. قلت لنفسي الحمد لله الذي وفر لي فرصة شراء هذه المخطوطة كي أتصدق بدرهمين لمحتاج في أول هذا الشهر الكريم وأغسل بعضا من ذنوبي. حيث أني دفعت ثلاثة دراهم لهذه البضاعة فلم أجد شرا في قراءة ما ورد فيها، فمعرفة أحوال المجانين وتقلبات نفوسهم وأهوائهم، هي معرفة وكل معرفة بركة.

عكفت على قراءة الحكاية الأولى التي تتحدث عن طفل أصابته الحمى وأخذت بتلابيبه حتى حارت أمه في أمره. حالما أنجزتها كانت الحمى قد سرت في جسدي كالنار في الهشيم حتى أني، لضعفي وبلبلة لساني، لم أتمكن من مناداة زوجتي لتجلب لي دثارا أو شيئا من اليانسون المغلي بالماء. انطرحت على الوسائد وما لبث النعاس والحمى أن غلباني فنمت.

حلمت ليلتها أنني كنت الطفل ذاك الذي قرأت هذيانه وأهوال الحمى عليه.



رأيت ما رأى من أفراس حديدية تعوم في النهر وجذوع أشجار كسلاحف عملاقة تطفر في أنهار سريعة الجريان. خضت في مياه مستنقعات آسنة تعج بالتماسيح والطير العجيب. فزعت كما فزع حين وجدت نفسي أطير وقد نبت في جانبي جناحين وصرت مثل طائر الرخ. تألمت كما تألم وانطرحت في المكان الذي كان منطرحا فيه تحت سوباط من جذوع الأشجار . أمه كانت أمي وخالته خالتي وأخاه أخي وصورته صورتي.

في الفجر استيقظت للصلاة وكان الحلم في رأسي، غير أن الحمى ولت، وشعرت بأني في أحسن حال كما لو أني قضيت ليلي عند جرف دجلة.

في الليلة التالية لم أقاوم رغبتي في قراءة الحكاية الثانية. بعد

الفطور، صليت العشاء في باحة المنزل فقد هبت عجاجة منعتني من الذهاب إلى المسجد. بعد الصلاة خفتت الريح وانقشع الغبار وازدانت السماء بنجومها، فانطرحت على أريكتي وفتحت المجلد حيث توقفت بالأمس. وجدت الطفل وسط عيد عجيب وفي مدينة غريبة وفد إليها البشر زرافات كي يبتهجوا بألعاب كأنها سحر أهل الهند. كانت أمه معه تقوده من تكية إلى أخرى فيها أجناس من بشر بسحنات سود وصفر وحمر لهم عصائب مثل عصائب صغار الحي. المدينة منورة بمصابيح شدت إلى أغصان الشجر وفي وسطها نصب القوم وليمة تجمع حولها الحواة وصانعي الأصنام والصور وباعة الحلوى والخبز المشوى على أسياخ حمراء. حالما انتهيت منها غلبني النعاس، كما غلب الطفل في الحكاية، ومضيت إلى طبقات الحلم أعيش في عالم مسحور فيه العجائب التي لا يعقلها عاقل. وقع لي كل ما وقع للطفل حتى استيقظت مفزوعا من هذا الجيثوم. لكن جسمي كان في أحسن حال على رغم ما قطعت من مسافات وما سمعت من أصوات .

هكذا كل مساء كنت أقضي ليلي في روح أخرى وفي جسد آخر وفي مكان آخر، يعلم الله كم كانت غربتي فيه، رغم أنه محض مكان حلم. كل ليلة بعد الفطور كنت أغرق في المجلد ثم أسافر بعدها، في نومي، إلى حيث يعلم الله من أمكنة لم يرها غيري من البشر. دام الأمر مادام وأنا أقرأ حكاية كل ليلة حتى ظهر هلال العيد في الليلة التاسعة والعشرين ، فاستبشرت كما استبشر الناس وأطمأنت نفسي؛ كنت قد أنجزت قراءة التسع وعشرين حكاية في تسع وعشرين ليلة من ليالي الشهر المبارك.



في صباح العيد اغتسلت وتعمرت بالبياض وتعطرت بالمسك ومضيت قبل الظهر إلى المسجد لأؤدي فريضة صلاة العيد. أخذت المجلد معي بعد أن قررت بيعه بنفس الثمن الذي اشتريته به وقد عرفت الآن سره. لم يكن صعبا على ذلك في هذا اليوم، الأول من أيام العيد، الذي ازدحم فيه سوق الوراقين ببغداد بجامعي المجلدات والدواوين ونفائس الكتب. ما أن خرجت من المسجد حتى وجدت شابا يقف في ذات المكان الذي رأيت فيه الدلال قبل تسع وعشرين

يوما . تلقف المجلد منى، دسه تحت أبطه بعد أن ناولنى ثلاثة دراهم كأنه أعدها لذلك منذ زمن طويل، ومضى بعيدا . دون أن يلتفت . مازلت إلى اليوم أذكر سحنته. كان على عتبة الثلاثين من عمره وقد شذب لحيته ، التى لم يخالطها بياض، على طريقة أهل فارس. كان فارع الطول لكن فى مشيته شىء من أنوثة. حين عدت إلى الدار أول الظهيرة ، كان الصبيان يلعبون فى الجادة لعبة الجمدان. وزعت عليهم بعضا من الحلوى المطعمة بالفستق التى تبضعتها لزوجتى. حين دخلت الدار وجدتها منحنية على صينية من النحاس تلمعها برماد التنور البارد. حالما أبصرتنى تركت الصينية فى مكانها ونهضت مقبلة نحوى وهى تنفض الرماد عن يديها . قبلتنى، ليس على عادتها وقدمت لى ضفيرة من الفل اشترتها فى غيابى. حين سألتها عن سر هذه القبلة والهدية وكأنها وقعت فى عشقى من جديد، قالت إن ذلك من تقاليد أهل رومية حين يصادف ذكرى ميلاد الرجل. تذكرت الحكاية السابعة فى المجلد وزهرة الفل التى كان يشمها الطفل كل صباح ، عرفت أن حياة الطفل فى المجلد هى بعضا من حياتى التى أعيش فصولها متأخرا.. ابتسمت وحدى فقد كنت قد بلغت ذاك اليوم التسع وعشرون عاما من عمرى، وهو عدد القصص التى قرأتها فى أيام شهر رمضان الذى صادف ذلك العام تسع وعشرون ليلة قمرية. ■

* أسر لنا البعض ممن انكبوا على دراسة المخطوطات وتحقيقها أن نسخة من المخطوطة محفوظة بعناية فى مكتبة جامعة ليدن فى هولندا. ولا ندرى كيف وصلت هذه النسخة حتى رفوف هذه المكتبة العتيدة!.